الجزء الثالث المجلد الثالث والثلاثون

مجلة
المجمع العلمي العربي
بدمشق

١ تموز سنة ١٩٥٨ م ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٧٧ هـ

ابن الخيّـــاط

٤٥٠ — ٥١٧

حياته

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي ، المعروف بابن الخياط ، الشاعر الدمشقي الكاتب . يتصل نسبه بتَغْلِب وهي قبيلة من ربيعة من العرب العدنانية .

ولد ابن الخياط بدمشق سنة خمسين وأربعمائة ، كما ذكر ذلك هو نفسه (١) ، وكان أبوه خياطاً (٢) فاشتهر بالنسبة إليه ، وكان له أخ اسمه يحيى (٣) سيأتي

(١) قال ابن عساكر : « سئل أبو عبد الله (ابن الخياط) عن مولده فقال : في سنة خمسين وأربعمائة » . تهذيب تاريخ دمشق ٢/٦٨ .

(٢) قال ابن فضل الله العمري في الفصل الذي عقده في مسالك الأبصار لابن الخياط : « . . . منذ نظم حسدت الشعرى شعره ، وود الغزال لو أن روقيه أحدهما له قلم والآخر لأبيه الخياط إبره » . مسالك الأبصار الجزء العاشر القسم الثاني ص ٣٦٧ نسخة أحمد الثالث مخطوط مصور في دار الكتب بالقاهرة .

(٣) قد يكون الأخ الأكبر لأنه سمي باسم جده جرياً على العادة المتبعة في تسمية أكبر الأبناء باسم جده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذكره . وكانت دار ابن الخياط في درب القصّاعين المعروف اليوم بحي الخيضرية[١] داخل باب الجابية ، وكان عند داره مسجد[٢] معلّق وقناة[٣] ، ولم تكن داره بعيدة عن دار[٤] الأمير أبي الفتيان ابن حَيّوس شاعر الشام في ذلك الزمان .

نشأ ابن الخياط في جوار ابن حَيّوس الشاعر ، ورأى الدنيا مقبلةً عليه ، وهو يتقلب في أعطاف النعيم ، فود الفتى الناشئ لو يكون مثله ، وآنس في نفسه ميلاً للشعر ، ونفوراً من صنعة أبيه الخيّاط ، فأخذ يؤدّب نفسه بحفظ أشعار[٥] المتقدمين وأخبارهم .

وكانت أحوال دمشق في حداثة ابن الخياط مضطربة غير مستقرة ، وأهل دمشق أحزاب يثورون بالولاة والقواد وينتقضون عليهم كرهاً لحكم الدولة الفاطمية ، وتأججت الفتنة سنة ٤٦٠ وعمر ابن الخياط وقتئذ عشر سنوات ، فثار أهل دمشق بأمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني والي الشام واضطروه إلى الخروج من قصر الإمارة وأحرقوا القصر ونقضوا بقاياه[٦] ، وكان ذلك إيذاناً بزوال حكم الفاطميين عن الشام .

واشتد الخلاف بين الجنود وبين أهل دمشق ، وطرحت النار في جانب منها فاحترقت ، واتصلت منه بجامع بني أمية من غربيه فاحترق في شعبان سنة ٤٦١ ولم يبق منه إلا حيطانه الأربعة[٧] ، ونهبت دور أهل البلد وأموالهم ، فعظم الخطب واشتد الأمر .

---

(١) ويلفظه الدماشقة اليوم « الحُضَيرية » .
(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢/٥٦ .
(٣) ابن عساكر ٢/١٥٤ والمراد بالقناة ما يطلق عليه الدماشقة اليوم اسم « الطالع » وهو مقسم لتوزيع الماء على الدور .
(٤) ديوان ابن حيوس المقدمة ١/٦ .
(٥) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/٦٧ .
(٦) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٩٣ .
(٧) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٩٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي سنة ٤٦٣ فتح أتسز بن أوق الخوارزمي من أمراء السلطان ملكشاه السلجوقي القدس ، وقصد دمشق فحصرها وتابع النهب لأعمالها حتى خربها وقطع الميرة عنها ، فضاق الناس وصبروا ولم يمكنوه من ملك البلد[١] . وبقي يحاصرها من حين إلى آخر حتى دخلها في ذي القعدة سنة ٤٦٨ فأنزل جنده في دور الدمشقيين ، واعتقل من وجوههم جماعة وشمَّسهم بمرج راهط حتى افتدوا نفوسهم بمال أدوه له ، ورحل جماعة منهم عن البلد الى طرابلس[٢] .

وفي سنة ٤٦٩ لم يبق من أهل دمشق عشر العشر من الجوع والفاقة ، بل لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم القفر والغلاء والجلاء . وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشترى بدينار ، وأكلت الكلاب والسنانير والفيران[٣] .

في هذه الفترة العصيبة ، ما بين سنة ٤٦٣ وسنة ٤٦٩ ، ترك ابن الخياط دمشق ، وهو في عنفوان الصبا ، لم يشتهر بالشعر ، فقصد حماة واتصل هناك بأمير اسمه أبو الفوارس محمد بن مانك وكتب له وخدمه مدة[٤] فعرف بابن الخياط الكاتب ، ثم اشتهر بالشعر ، وفي ديوانه ص ٧ قصيدة يمدح بها هذا الأمير أولها :

سَقَوْهُ كَأْسَ فُرْقَتِهِمْ دِهاقا وَأَسْكَرَهُ ٱلْوَدَاعُ فَما أفاقا

(١) ابن الأثير ١٠/٢٣ .
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/٣٣١ .
(٣) خطط الشام ١/٢٦٥ .
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي المجلد الثاني عشر ورقة ١١٠ (مخطوط) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان قد هاجر من دمشق إلى حلب أبو الفتيان ابن حَيُّوس [١] جاره القديم سنة ٤٦٤ ، وأحسن وفادته بنو مرداس أمراء حلب وأغدقوا عليه عطاياهم ، فبدا لابن الخياط أن يزوره في حلب ، ولما اجتمع به وعرض عليه شعره قال : « قد نعاني هذا الشاب إلى نفسي ، فقلّما نشأ ذو صناعة ومهر فيها إلا كان دليلاً على موت الشيخ من أبناء جنسه » [٢] .

وقال ابن الخياط : « دخلت في الصبى على الأمير ابن حَيُّوس بحلب [٣] وهو مسن فأنشدته :

لَمْ يَبْقَ عِنْدِي مَا يُبَاعُ بِدِرْهَمٍ ... وَكَفَاكَ مِنِّي مَنْظَرٌ عَنْ مُخْبَرِ
إِلَّا صُبَابَةُ مَاءِ وَجْهٍ صُنْتُهَا ... عَنْ أَنْ تُبَاعَ وَأَيْنَ أَيْنَ الْمُشْتَرِي

فقال له ابن حَيُّوس : لو قلتَ : « وأنت نعم المشتري » لكان أحسن ، ثم قال : كرمتَ عندي ونعيتَ إليَّ نفسي ، فإن الشام لا يخلو من شاعر مجيد ، فأنت وارثي ، فاقصد بني عمّار بطرابلس فإنهم يحبون هذا الفن ، ثم وصله بثياب ودنانير » [٤] .

وقبل أن يذهب إلى طرابلس مدح الأمير وثّاب بن محمود بن نصر بقصيدة أنشده إياها بحماة سنة ٤٧٤ أولها [٥] :

عَتَادُكَ أَنْ تَشُنَّ بِهَا مُغَارَا ... فَقُدْهَا شُزَّبًا قُبًّا تَبَارَى

ومدح بعد ذلك بشيزر الأمير سديد الملك أبا الحسن علي بن مقلّد بن نصر ابن منقذ صاحب شيزر سنة ٤٧٦ بقصيدة أولها .

---

(١) ديوان ابن حيوس المقدمة ص ١٤ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٥٦ .
(٣) كان ذلك سنة ٤٧٢ كما ورد في الديوان ص ٢٨٧ .
(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/١١٠ (مخطوط) .
(٥) هي فاتحة الديوان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يَقِيني[1] يَقِيني حادِثاتِ ٱلنَّوائِبِ وَحَزْمِي حَزْمِي في ظُهورِ ٱلنَّجائِبِ

وتصح عزيمته على العمل بوصية شيخه ابن حَيُّوس ، فيترك الكتابة عند محمد بن مانك في حماة ، ويقصد بني عمّار بطرابلس في حدود سنة ٤٧٦ وهو ابن ست وعشرين سنة ، وصحت نبوءة ابن حَيُّوس ، فقد توفي بعد سنة من اجتماعه بابن الخياط في حلب ، سنة ٤٧٣ وأصبح ابن الخياط بعد ذلك على حداثة سنه شاعر الشام ، وظل كذلك الى آخر حياته .

دخل ابن الخياط طرابلس وكان صاحبها يومئذ القاضي جلال الملك أبا الحسن علي بن محمد بن عمّار ، وبنو عمّار من خير الحُكّام ولهم أيادٍ بيض على العلم والأدب . فاتصل ابن الخياط بجلال الملك ومدحه ولم يتوصل إليه إلا بما عرف به من العطف على الشعر والشعراء ، وإلى ذلك يشير بقوله من أبيات مدحه بها[2] :

آليتُ لا أبغي نَداكَ بشافعٍ مالي إليكَ وسيلةٌ إلّا كا

وذكر في قصيدة مدحه بها رحلته إليه فقال[3] :

وَخَرْقٍ كَأَنَّ ٱلْيَمَّ مَوْجُ سَرابِهِ تَرامَتْ بنا أَجْوازُهُ وخُروقُها
كأنّا على سُفْنٍ مِنَ ٱلْعِيسِ فَوْقَهُ مَجادِيفُها أيدي ٱلْمَطِيِّ وسُوقُها
مُرَجِّي ٱلْحَيا مِن راحَةِ ٱبْنِ محمدٍ وأيُّ سماءٍ لا تُشامُ بُروقُها

ومدح أخاه فخر الملك بعدة قصائد هي من أحسن شعره ، منها قصيدة فريدة هي في رأينا أحسن شعره سلمت جميع أبياتها وشرفت ألفاظها ومعانيها أولها[4] :

أَعْطَى ٱلشَّبابَ مِنَ ٱلْآرابِ ماطَلَبا وَراحَ يَخْتالُ في ثَوْبَيْ هَوىً وَصِبا

كما مدح غيرهما من آل عمّار ومن رجال دولتهم وأصحابهم .

(١) الديوان ص ١٢ .
(٢) الديوان ص ٢٣ .
(٣) الديوان ص ٤٥ .
(٤) الديوان ص ٦٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دخل ابن الخياط طرابلس وهو شاب لا يعتمد إلا على كفاءته في الشعر وطبعه الفياض وما حفظه من شعر المتقدمين ، إذ أن بضاعته في آلات العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع وعروض بضاعة مزجاة . وكان في طرابلس شيخ أندلسي اسمه أحمد بن محمد الطليطلي له حلقة عامرة بالطلبة يلقي عليهم فيها دروساً في العربية والأدب ، فجعل ابن الخياط يغشى هذه الحلقة ولزم شيخها وأفاد من الأدب وفنونه . ولم يقتصر على حضور هذه الحلقة ، بل جعل يختلف أيضاً الى دار العلم التي أنشأها بنو عمّار في طرابلس وجهزوها بأنواع الكتب ، ويعتبر نفسه من تلامذتها [1] .

وصحب في طرابلس جماعة من الوجوه والرؤساء والأدباء فضلاً عن أمرائها بني عمّار ، وكان في أوقات فراغه يجلس في دكان بسوق من أسواق طرابلس مع بعض أصحابه من الأدباء ، وقد يخرج معهم إلى البساتين والأماكن النزهة ، يروّحون عن أنفسهم ويتطارحون الشعر والأدب . قال ابن عساكر [2] : « حدث السابق وهو أبو اليمن محمد بن الخضر المعري قال : اجتمعت بأبي عبد الله ابن الخياط بطرابلس ، وكنت أنا وهو نجلس في دكان إنسان عطار نصراني يعرف بأبي الفضل ذكي محب للأدب ، فخرجنا يوماً إلى ظاهر البلد ، فاخترنا موضعاً جلسنا فيه على غدير هناك ، فقال أبو عبد الله للسابق : اعمل في هذا المعنى أبياناً عاجلاً ، فقال نعم ؛ فعمل ابن الخياط بديهاً [3] :

أَوَ ما تَرَى قَلَقَ ٱلْغَدِيرِ كأَنَّهُ ... يَبْدُو لعينكَ منهُ حَلْيُ مَناطِقِ

مترقرقٌ لعبَ الشُّعاعُ بمائِهِ ... فأرْتَجَّ يَخْفُقُ مثلَ قلبِ العاشقِ

فإذا نظرْتَ إليه راعكَ لَمْعُهُ ... وعللتَ طرْفَكَ من سرابٍ صادقِ

ولم يفتح الله على السابق ببيت ولا بلفظة ، فقال العطار : قد عملت بيتاً واحداً وهو :

---

(١) الديوان ص ١٢١ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٢/١٠٢ (مخطوط) .

(٣) انظر الديوان ص ١٢٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قد كنتُ آمُلُ أنْ أجيءَ مُصَلِّياً حتى رأيتك سابقاً للسابقِ

فاستحسنا ما أتى به وجعلناه من مأثور الأخبار . وكان السابق لا يحفظ من شعره بيتاً واحداً وأبو عبد الله بن الخياط يحفظ شعره منذ عمله إلى أن مات » .

والمدة التي عاشها ابن الخياط في طرابلس تقدر بعشر سنوات من سنة ٤٧٦ الى سنة ٤٨٦ تزيد أو تنقص قليلاً ، نجا فيها من الفقر ، ولكنه لم يبلغ ما يصبو إليه من الثراء ، على أن ما حاز من مال وعقار هناك لم يسلم من محن الدهر ، فقد احترقت داره في طرابلس وأتت النار عليها وعلى ما فيها من أثاث ومتاع ، وقد قال في ذلك قطعة منها قوله [١] :

قد نَحَتْ عظمي خطوبٌ لم تَزَلْ تأكلُ الأحرارَ أكلاً مُمْعِنا

وأتتني بعدها نازلةٌ أنزلتْ في ساحتيَّ ألْمِحَنا

وشعره الذي قاله في طرابلس فيه مقدار غير يسير من الشكوى من معاكسة الدهر له ومن تعذر المطالب .

وفي هذه المدة وفد من طرابلس على منير الدولة والي صور سنة ٤٨٤ ومدحه بقصيدة أنشده إياها بصور أولها [٢] :

إذا عَزَّ نفسي عن هواكَ قصورُها فمثلُ النوى يقضي عليَّ يَسيرُها

وعاد إلى طرابلس ولم يمكث بها طويلاً وتركها وعاد الى دمشق في حدود سنة ٤٨٦ ولسانه رطب بالثناء على بني عمّار ، فقد كتب من دمشق بعد خروجه من طرابلس قصيدة الى جلال الملك أولها [٣] :

لئنْ عَداني زمانٌ عن لقائِكمُ لَمَا عَدانِيَ عن تَذْكارِ ما سلفا

ولما عاد ابن الخياط إلى دمشق كان ملكها يومئذ تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي ، وكان وزيره هبة الله بن بديع الأصفهاني فصحبه وكان

(١) الديوان ص ٩١ .
(٢) الديوان ص ١٣٣ .
(٣) الديوان ص ٣٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أثيراً عنده ، قال ابن القيسراني [١] : « وقّع هبة الله بن بديع أبو النجم لابن الخياط بألف دينار وهو آخر شاعر في زماننا وقع له بألف دينار » .

وسافر معه سنة ٤٨٧ إلى الري وأنشده هناك قصيدة مدحه بها أولها [٢] :

أيا بَيْنُ ماسُلطْتَ إلاَّ عَلَى ظَامي ويا حُبُّ ماأبقيتَ مني سوى ألوهمِ

ويقول وهو بالري مخاطباً هبة الله من أبيات [٣] :

وما كان لي لولاكَ بِالرِّيِّ مَنْزِلٌ وإنْ شَعَفَتْ غيري وَتَيَّمَ حُبُّها

ولم تطب له الإقامة فيها فتركها بعد أن هجا مستوفي أعمالها واسمه فخراور بأبيات تظرّف فيها باستعمال كلمة فارسية وأول الأبيات [٤] :

قولا لِفَخْرَاوَرَ قَوْلَ أَمْرِئٍ في عرضِهِ عاثَ وفي الرِّيشِ [٥] راثْ

وذهب من الري إلى خراسان وفيها بقول متشوقا إلى دمشق وغوطتيها [٦] :

ألا ليتَ شعري هل أَبيتَنَّ ليلةً يُرَوِّحُنِي بِالْغُوطَتَيْنِ نسيمُ

ولم تطل مدة إقامته في بلاد العجم بل عاد إلى دمشق [٧] سنه ٤٨٧ واتصل فيها بالأمير حسان بن مسمار بن سنان أمير الكلبيين ومدحه بقصيدتين مطلع الأولى [٨] :

هي الديارُ فَعُجْ في رسمها العاري إنْ كان يُغنيك تعريجٌ على دارِ

ومطلع الثانية [٩] :

متى أنا طاعنٌ قلبَ الفجاجِ ورامي الْخَرْقِ بِالْقُلُصِ النَّواجِي

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/١١٠ (مخطوط).
(٢) الديوان ص ١٤٥ .
(٣) الديوان ص ١٥٢ .
(٤) الديوان ص ١٥٣ .
(٥) ريش : بالفارسية اللحية .
(٦) الديوان ص ١٥٣ .
(٧) انظر الحاشية رقم ٣ ص ١٧٠ من الديوان .
(٨) الديوان ص ١٥٤ .
(٩) الديوان ص ١٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما اتصل في السنة نفسها بعضب الدولة أبق أحد مقدّمي أمراء دمشق ومدحه بالقصيدة المشهورة التي أولها [١] :

خُذَا مِن صَبا نجدٍ أمانًا لقلبِهِ فقد كادَ رَيّاها يَطيرُ بِلُبِّهِ

وصحب عضب الدولة وخص به ومدحه بعدة قصائد ونادمه على الشراب في مجالس اللهو والأُنس والطرب ، وكان يرتجل الشعر في وصف تلك المجالس وما يجري فيها من اللهو . وطالت صحبته لعضب الدولة حتى فرق بينهما الدهر بوفاة عضب الدولة سنة ٥٠٢ فرثاه بقصيدة ليست من جيد شعره أولها [٢] :

أبعدَكَ أتّقي نُوَبَ الزمانِ أبعدكَ أرتجي دَرَكَ الأَماني

وبعد وفاة عضب الدولة اتصل بتاج الملوك أبي سعيد بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، وكان حينئذ وليًا لعهد أبيه ، وصحبه كما صحب عضب الدولة ومدحه وكان يحضر مجالس لهوه وشرابه ويصفها .

وصحب أيضًا الرئيس أبا الذوّاد المفرّج بن الحسن الصوفي رئيس دمشق ، والوزير طاهر بن سعد المزدقاني ، وأبا اليمن سعيد بن علي التنوخي المعري متولي الشرطة [٣] بدمشق ، وأبا يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي رئيس دمشق وصاحب التاريخ المعروف بذيل تاريخ دمشق . ومدحهم وأخذ جوائزهم كما مدح غيرهم من القواد والوجوه والرؤساء .

وكان له عدد من الأولاد لا نعرف أسماءهم ، ولكن ورد في شعره ما يدل على ذلك ، فقد كتب إلى ابن الصوفي رئيس دمشق قصيدة ذكر فيها أنه ازداد عدد أولاده بمولود جديد قال [٤] :

. . . . غيرَ أنّي أدعوَ نداكَ إلى يو مٍ به زاد في عبيدِكَ عبْدُ

(١) الديوان ص ١٧٠ .
(٢) الديوان ص ٢٢٣ .
(٣) ابن عساكر ٦٩/٢ والأعلاق الخطيرة ، ص ١١٤ و ص ٢٧٦ .
(٤) الديوان ص ٢٥٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وَلَعَمْري ما كان يخرجُ نجلٌ عن قبيلٍ أبوهُ فيهمْ يُعَدُّ
وَلَأَنْتَ الْأَوْلى بعبدِكَ مِنِّي كُلُّ مَوْلىً بعبدِهِ مُسْتَبِدُّ

ومرض قبل وفاته مدةً ، وكتب في مرضه سنة (٥١٧) إلى الرئيس ابن القلانسي قصيدة هي آخر ما ورد في الديوان من شعره أولها [١] :

عسى باخِلٌ بلقاءٍ يجودُ عسى مامضى من تدانٍ يعودُ

ويقول فيها :

مرضتُ فهل من شفاءٍ يصابُ وهيهاتَ والداءُ طَرْفٌ وَجِيدُ
وياحَبَّذا مرضي لو يكو نُ مُمْرِضِيَ اليومَ فِيمَنْ يعودُ

وتوفي بدمشق في حادي عشر شهر رمضان سنة ٥١٧ سبع عشرة وخمسمائة [٢] .

ولم تعين المقبرة التي دفن فيها ولعلها مقبرة الباب الصغير لقربها من داره .

ولم يشتهر أحد من أولاده بعده ولا من أولادهم ؛ ولكن ذرية أخيه يحيى اشتهر منها جماعة بالعلم والأدب والوجاهة عرفوا بأبناء سني الدولة ، ويظهر أن يحيى هذا هاجر مع أخيه الشاعر إلى طرابلس وتدبَّرها ، وولد له بها ابنه الحسن الملقب بسني الدولة أبي الكتائب ، ورجع سني الدولة إلى دمشق و « تولى كتابة الإنشاء لصاحب دمشق قبل نور الدين الشهيد ، وكان له ثروة وحشمة ووقف على ذريته أوقافاً ، وهو ابن أخي أحمد بن محمد بن الخياط الشاعر المشهور [٣] » وعرف أولاده ببني سني الدولة ، وتولى منهم غير واحد القضاء في دمشق منهم القاضي شمس الدين وابنه القاضي صدر الدين وابنه القاضي نجم الدين ، كان كل منهم قاضي القضاة في دمشق . وفيما يلي شجرة تبين نسب ابن الخياط وذرية أخيه :

(١) الديوان ص ٣٢٥ .
(٢) ابن خلكان ١/٥٧ .
(٣) المنهل الصافي لابن تغري بردي (مخطوط) بترجمة صدر الدين احمد بن يحيى بن سني الدولة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صدقة

بحيى

علي

محمد

أبو عبد الله أحمد المعروف بابن الخياط (٤٥٠ – ٥١٧) يحيى

سني الدولة الحسن [١]

هبة الله

قاضي القضاة شمس الدين [٢] أبو البركات يحيى (٥٥٢ – ٦٣٥)

فاضي القضاة صدر الدين [٣] أبو العباس أحمد (٥٧٠ – ٦٥٨)

قاضي القضاة نجم الدين [٤] محمد (٦١٦ – ٦٨٠)

(١) كان من كتاب الإنشاء لصاحب دمشق قبل نور الدين الشهيد . (المنهل الصافي بترجمة صدر الدين أحمد بن يحيى ابن سني الدولة) .
(٢) طبقات الشافعية ٥/١٥٠ وقضاة دمشق ص ٦٨ وشذرات الذهب ٥/١٧٧ .
(٣) قضاة دمشق ص ٧٠ وشذرات الذهب ٥/٢٩١ والمنهل الصافي .
(٤) قضاة دمشق ص ٧٤ وشذرات الذهب ٥/٣٦٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

علمه وأدبه

نشأ ابن الخياط بدار صانع فقير ، بحي من أحياء دمشق الجنوبية ، في فترة من الزمن شديدة الاضطراب في كل ناحية من نواحي الحياة ، لا يكاد الإنسان ينال فيها قوت يومه إلاّ بالجد والكد ، فلم يتيسر للشاعر الفتى أن يتلقى العلم والأدب عن المشايخ كما ينبغي ، بل كان يحفظ ما يطلع عليه ويختاره من الشعر الذي يعجبه وينسج على منواله ؛ وكانت دار ابن حَيّوس شاعر الشام وقتئذ غير بعيدة من داره ، وهو أمير موسر ، فودّ ابن الخياط لو يكون مثله وبقي معجباً به طول حياته . ولكن ابن حَيّوس هاجر من دمشق في أوائل سنة ٤٦٤[1] قبل أن يتمكن ابن الخياط من الأخذ عنه ، وما يذكر في كتب التراجم من أن ابن حَيّوس شيخ ابن الخياط يقصد به اجتماعهما في حلب كما سيأتي .

وتزداد الحال سوءاً في دمشق فيضطر ابن الخياط الى الخروج منها وهو ابن عشرين سنة ، تنقص أو تزيد قليلاً ، ولم يحفظ من شعره شيء قبل خروجه من دمشق إلى حماة حيث عمل كاتباً للأمير أبي الفوارس محمد بن مانك ، وكان لم يشتهر بعد بالشعر فعرف بابن الخياط الكاتب . وزار حلب غير مرة واجتمع هناك بابن حَيّوس ، قال ابن خلكان[2] : « لما اجتمع ابن الخياط بأبي الفتيان ابن حيوس الشاعر المشهور بحلب وعرض عليه شعره قال : قد نعاني هذا الشاب الى نفسي ، فقلما نشأ ذو صناعة ومهر فيها إلا كان دليلاً على موت الشيخ من أبناء جنسه » .

وتبدأ أخبار ثقافته وأخذه عن غيره من هذا التاريخ ، أي بعد بلوغه العشرين من عمره ، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ نفسه بحفظ الشعر وأخبار الأدباء . قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : « اجتمع ابن الخياط بحلب بالأمير أبي الفتيان

(١) ديوان ابن حيوس المقدمة ص ١٣ .
(٢) وفيات الأعيان ٥٦/١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن حَيُّوس ، وروى عنه وعن السابق محمد بن الخضر بن أبي مهزول المعري ، وحسان بن الحباب ، وأبي نصر بن الخيمي ، وعبد الله بن أحمد بن الدويدة . وروى عنه احمد بن محمد الطليطلي ومحمد بن نصر القيسراني وتخرج به » .

وفي آخر مرة اجتمع بابن حَيُّوس وصله بثياب ودنانير ونصح له أن يقصد بني عمّار بطرابلس ففعل . قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : « قال أبو عبد الله احمد الطليطلي : كان ابن الخياط أول ما دخل طرابلس وهو شاب ، يغشاني في حلقتي وينشدني ما أستكثره له فأتهمه ، لأنني كنت إذا سألته عن شيء من الأدب لا يقوم به ؛ فوبخته يوماً على قطعة عملها ، وقلت أنت لا تقوم بنحو ولا لغة ، فمن أين لك هذا الشعر ؟ فقام إلى زاوية ففكر ثم قال اسمع :

وفاضلٍ قالَ إذ أنشدتُهُ نُحْبًا ... مِن بعض شعري وشعري كُلُّهُ نُخَبُ

لا شيء عندك مما يستعينُ به ... مَنْ شأنُهُ معجزاتُ النظم والخُطَبُ

فلا عَرُوضٌ ولا نَحْوٌ ولا لُغَةٌ ... قل لي فمن أين هذا الفضل والأدبُ

فقلتُ قولَ امرىءٍ صَحَّتْ قريحتُهُ ... إن القريحةَ علمٌ ليس يُكْتَسَبُ

ذوقي عَرُوضي ولفظي جُلُّهُ لغتي ... والنحو طبعي فهل يعتاقني سببُ(١)

فقلتُ حسبك الله ، والله لا استعظمت لك بعدها عظيما . ولزمني بعد ذلك فأفاد من الأدب ما استقل به » حتى أن الطليطلي نفسه روى عنه .

ولم يقتصر على حضور هذه الحلقة بل جعل يختلف أيضاً إلى دار العلم التي أنشأها بنو عمّار في طرابلس وجهزوها بأنواع الكتب ويعتبر نفسه من تلامذتها ويطالب بما يوزّع عليهم من جراية وهبات(٢) .

(١) لم ترد هذه الأبيات في الديوان لأن الديوان لم يشتمل على أكثر ما قاله ابن الخياط في صباه على ما نرى .

(٢) انظر الديوان ص ١٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأخذت تزداد ثقافته الأدبية مع الزمن وساعده على ذلك سرعة حفظه وقوة ذاكرته ، قال ابن عساكر : « كان ابن الخياط يحفظ أشعار المتقدمين وأخبارهم ، جالسته مرة عند جدي القاضي أبي الفضل وتفاوضنا في معانٍ كثيرة .... وأجازني بجميع ما قاله من النظم والنثر سنة سبع وخمسمائة » (١) .

وصحبه في دمشق محمد بن نصر القيسراني الشاعر المشهور وكان فتى ناشئاً ولازمه وقرأ عليه الأدب وتخرج به (٢) وهو الذي جمع ديوانه ورتبه . واختار أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي مجلدة لطيفة من شعره وسمعها منه .

وكان لابن الخياط نثر واشتهر بـ (الكاتب) قبل أن يشتهر بـ (الشاعر) وأجاز ابن عساكر برواية نظمه ونثره ، وكان يفتخر بنثره كما كان يفتخر بشعره - على قلة شعره في الفخر - والى ذلك يشير بقوله (٣) :

... مما تَنَخَّلَهُ وَحَصَّلَ ماهِرٌ فَضَلَ البَرِيةَ ناثراً ومُقَرِّضا

ولكن لم يصل إلينا شيء من ذلك النثر .

على أن أثر الثقافة ضئيل في شعره ، فقد كان يعتمد على طبعه وذوقه أكثر مما يعتمد على ثقافته الأدبية التي اتسعت مع الزمن ، والناظر في شعره يجده يأخذ بالرخص ويستعمل الضرورات وبعضها أشبه بالخطأ واللحن ، ويصوغ ألفاظاً ويشتقها على سبيل القياس ولو لم تسمع . وسنبسط ذلك عند الكلام على لغته .

صفته وأخلاقه

لم يعن أحد ممن ترجم لابن الخياط بوصف هيئته ، ولولا جملة واحدة نقلها الذهبي في سير أعلام النبلاء عن العماد الكاتب لما علمنا شيئاً عنها قال : « ... ومن كان ينظر إلى ابن الخياط يعتقده جمّالاً أو حمّالاً لبِزّته وشكله

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ .
(٢) ابن خلكان ٢١/٢ .
(٣) الديوان ص ٢٠٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعرضه » فقد كان إذن ضخماً عريضاً خشن الهندام والهيئة واللبسة ، يلبس الغليظ الجافي من الكساء . وعرفنا من شعره أشكالاً من الثياب التي كان يلبسها ، فقد كتب إلى أحد أصحابه يقتضيه فوطة يلبسها مع ثوب كان وصله به قوله من أبيات ص ٣١٧ :

قد وصلَ الثوبُ ولا عذرَ لي أن ألبسَ الثوبَ بلا فُوطَهْ

« والفوطة واحدة الفُوَط وهي ثياب تجلب من السند غلاظ قصار مخططة تتخذ مآزر يشتريها الجمالون والأعراب والخدم فيأتزرون بها » .

وكان يلبس على هذه الفوطة ثوباً ، وفوقه جبة من صوف أو خز إن تيسر ، قال[1] :

أسومُ الجِبابَ فلا خَزَّها أُطِيقُ ابتياعاً ولا صوفَها

وكيف السبيلُ إلى جُبَّةٍ لمن ليس يملك تصحيفَها

وغني عن البيان أنه كان يرسل لحيته ، ويعتمُّ بعمامة يكوِّرها على رأسه .

ولا بد من أن يكون استعاض عن تقشفه وخشونته بقسط من التنوق بعد أن ارتاش وحسنت حاله وصحب الأُمراء والوزراء والقواد والرؤساء ونادمهم .

ويظهر أنه كان قوياً جلداً على السفر ومشاقّه وركوب الخيل والجمال ، فقد وصف أسفاره وما كانت تعانيه فيها الخيل والإبل . ولقد سافر في شبابه من دمشق إلى حماة وحلب وطرابلس وصور ، وعاد الى دمشق كهلا ، ولم يكد يستقر بها حتى قصد بلاد العجم فدخل الري ومنها إلى خراسان ثم عاد الى دمشق . وفي ديوانه أبيات غير قليلة في وصف أسفاره[2] .

(١) الديوان ص ٢٩٥ .

(٢) انظر الديوان ص ٤٥ و ص ٧٤ و ص ١٤٧ و ص ١٦١ و ص ٢٣٧ و ص ٢٥٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان على ما يظهر ، مع سرعة خاطره وبداهته وارتجاله ، حلو الحديث حسن المحاضرة ، فاصطفاه علية القوم في طرابلس وفي دمشق ، فصحبهم وحضر مجالسهم الخاصة ونادمهم على الشراب .

وكان يميل الى مخالطة الناس وملابستهم ، والترويح عن النفس والتفرج بالجلوس في الأسواق في أوقات فراغه عند بعض أصحابه ومع بعض أصحابه من الأدباء ، وقد يذهبون معاً الى بعض الأماكن النزهة والبساتين ، فقد ذكر عنه أنه كان يجلس في طرابلس [١] في دكان عطار أديب ، وكان يجلس في دمشق بدكان الحسن [٢] بن رويل الأبّار الشاعر في سوق الأبّارين [٣] يتناشدان الأشعار ؛ وكان يلعب بالنرد [٤] . ووصفه الصلاح الصفدي بالذكاء [٥] .

وكان لما قاساه في حداثته من الفقر والحرمان والغربة كثير الشكوى من الزمان وأهله ، وظل هذا ديدنه حتى بعد أن حسنت حاله ، قال من قصيدة وقد بلغ الأربعين من عمره يشكو المحارفة في العيش [٦] :

وقد وَسَمَتْني الأربعونَ بِسِرِّها ... وحالتْ بِشَيْبي للشبيبةِ حالُ

فليتَ الذي أرجو من العمرِ بعدها ... يطيبُ به عيشٌ ويَنْعَمُ بالُ

يقولُ أناسٌ كيفَ يعجزكَ الغِنى ... ومثلك يكفيه الفِعالَ مقالُ

وما عندهم أنَّ السؤالَ مَذَلَّةٌ ... ونقصٌ وما قَدْرُ الحياةِ سؤالُ

---

(١) انظر ص ٩ من المقدمة .
(٢) خريدة القصر ١/٢٦٢ ومرآة الزمان ص ١٠٠ .
(٣) سوق الأبّارين بباب الفرج (قرب الجامع المعلق) ولهم سوق آخر غربي البزوريين . أسواق دمشق ليوسف بن عبد الهادي . الخزانة الشرقية ٣/١٢٨ .
(٤) انظر الديوان ص ٢٨٤ .
(٥) الوافي بالوفيات في ترجمة ابن الخياط (مخطوط) .
(٦) الديوان ص ٢٩٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويظهر أنه كان لين الجانب دمث الأخلاق يألف ويؤلف ، يدل على ذلك خلو شعره من الفخر والهجاء إلا قليلاً جداً من الأبيات في هذين المعنيين . وفي قوله يعاتب صديقاً له من أبيات [1] :

وما هيَ إلاَّ حُرْمَةٌ لو رعيتَها ... رعيتَ فتىً عن شكرها لا يُقَصِّرُ

كريماً متى عاطيتَهُ كأسَ عِشْرَةٍ ... تعلمتَ من أخلاقه كيف تَسْكَرُ

ما يدل على ذلك .

ويقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار : « كان ابن الخياط في وقته ممن له القدر العلي ، والصدر الرحيب لفضله الجلي ، وهو دمشقي الدار ، شقي الحظ باللئام لا بغلبة الأقدار ، هجي بما نبّه على جلالته ، ونوّه بقدر أصالته ، وشُبِّه على حسوده فأكّد له المدح بما يشبه الذم ، وأراد به النقص في حقه وأراد الله خلافه فتم ، وتحيَّل في إخفاء مسكه المتضوِّع وريحه قد نم » فلم يأبه لمن هجاه من هؤلاء الحساد ومر بلغوهم مر الكرام ، ولم يجب أحداً منهم لأنه غير طعّان ولا لعّان [2] .

(يتبع) خليل مردم بك

---

(١) الديوان ص ١٢٤ .

(٢) هذا البحث مأخوذ من مقدمة ديوان ابن الخياط الذي هو الآن تحت الطبع مع مطبوعات المجمع العلمي العربي بتحقيق الأستاذ الرئيس خليل مردم بك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net